خـــــارج الوقت

عـــدنيـــة شـــبلي ❖

ساعتي الصغيرة أولُ مَنْ يلمس التغييرَ الناجمَ عن الخروج من فلسطين أو الدخول إليها. في الطريق إلى هناك، أَلْمحها في رسغي تُحصي الوقتَ بالثانية، بانتظار اللحظة التي تطأ فيها عجلاتُ الطائرة مدرَّجَ المطار، فأضبطها حسَب التوقيت المحلّي، وتنطلق هي تَعِدّه بألفة متناهية وما إنْ أخرج من فلسطين حتى أجدها تتقدّم من غير لهفة، تتأنّى في وداعها له، ذلك الوقتَ الذي سينتهي لحظةَ هبوط الطائرة فوق أرضِ مطارٍ غريبة

قد يبدو للبعض أنّني أبالغ قليلاً في ما أروي عن ساعتي، خاصةً أنّها ساعةٌ صغيرة. وكثيرًا ما يستغرب الناسُ كيف يمكنها أن تدلّني على الوقت بالأساس، لشدّةِ ما هي صغيرة! بل أمكنني، أنا أيضًا، مشاركتُهم شكوكَهم، لولا أنّني لم أعرفْ كلَّ ما بتُّ أعرفه عن الساعات وما لديْها من قدرات

كان ذلك في فترة دراستي الابتدائية، خلال إحدى حصص الأدب العربي. كان منهاجُ التدريس آنذاك، كما لا يزال حتى هذه اللحظة، خاضعًا لمكتب الرقابة الإسرائيلي. فكانت تدرَّس نصوصٌ أدبيةٌ من شتّى الدول العربية ما عدا فلسطين، تحسُّبًا لما فيها من إشارات أو حتى إيحاءات قد تثير وعيَ الطالب بقضية فلسطين. وهكذا تمّ اعتبارُ الأدب الفلسطيني من المحظورات، إنْ لم يكن من المحرَّمات، مثله مثل الأدب الإباحي، ما عدا قصة واحدة، قصة «الساعة والإنسان» للكاتبة سميرة عزّام، التي يبدو أنّ مكتب الرقابة اعتبرها قصةً «غيرَ ضارّة »

تحكي قصةُ «الساعة والإنسان» (الصادرة في العام ١٩٦٣) عن شابّ يستعدّ للنوم قبل أول يوم عملٍ له على الإطلاق، فيَضْبط منبّهَ ساعته عند الساعة الرابعة صباحًا كي يصحو في الوقت المناسب ليلحقَ بالقطار الذي سيوصله إلى مكان عمله في الموعد المحدّد وما يكاد رنينُ جرس المنبّه ينطلق في فجر اليوم التالي حتى يأتي صوتُ قرعٍ على باب بيته. حين يفتحه يجد أمامه رجلاً مسنّاً لم يسبقْ أن رآه؛ كما لا تسنح له الفرصةُ لسؤاله عمّن يكون، إذ إنّ الأخير سرعان ما يستدير مبتعدًا ليختفي في عتمة الفجر. ويتكرر الموقفُ ذاتُه يوميّاً لدرجةٍ يتوقف معها الموظّفُ الشابُّ عن ضبط ساعته وفقط بعد مرور أشهر عديدة يكتشف الشابُّ هويةَ الطارق، بعد أن يخبره زميلٌ له في العمل بأنّ ذلك الطارق يدور يوميّاً على جميع الموظفين في الشركة ليوقظَهم في الوقت المناسب فلا يتأخّرَ أيٌّ منهم عن موعد انطلاق القطار فيلقى المصيرَ الذي لقيه ابنُه حين بلغ المحطّةَ ذاتَ صباحٍ متأخّرًا، بينما كان القطارُ يوشك على التحرُّك، فتعلّق ببابه، لكنّ يدَه خذلتْه وسقط بين عجلات القطار!

للوهلة الأولى قد تبدو هذه القصةُ عاديةً و«آمنة،» خاصةً للرقيب، إلا أنّها في الواقع ساهمتْ في بلورة وعيي في ما يتعلّق بمسألة فلسطين كما لم يفعلْ أيُّ نصّ آخر في حياتي أكان هنالك ذاتَ يوم موظّفون فلسطينيون ينطلقون كلَّ صباح إلى محطة القطار للذهاب إلى أماكن عملهم؟ أكانت هنالك محطةُ قطار؟ أكان هناك قطارٌ يَصْفر؟ أكانت هنالك حياةٌ عاديةٌ ذاتَ يوم في فلسطين؟ وأين هي اليوم؟ ولماذا لم تعد موجودة؟

راح النصُّ يومَها يَحْفر في نفسي حسّاً عميقًا بالفقدان لكلّ ما هو عاديّ وسويّ، بل ومأساوي، حتى لم أعد قادرةً على تقبُّل الحياة المهمَّشة والثانوية التي نُفينا إليها بعد العام ١٩٤٨، حيث لم يعد وجودُنا يعدو كونَه «مشكلة »

مقابلَ قصة تلك الساعة وما أفْشت إليّ به عن استحالة تحديد الوجود أو حصره، هنالك ساعتي الصغيرة. وساعتي هي أكثرُ شبهًا بالرجل المسنّ في قصة عزّام منها بساعةٍ سويسريةٍ، جُلُّ اهتمامها حسابُ الوقت بدقة فعلى خطى ذلك الرجل الذي تحوّل من إنسان إلى ساعة ليصبح العيشُ محتمَلاً، قررتْ ساعتي أن تتحوّلَ من ساعة إلى إنسان.

❖ ـ كاتبة شابّة من فلسطين حازت روايتُها الأولى **مساس** (دار الآداب ٢٠٠٢) جائزةَ الرواية في مسابقة الكاتب الشابّ للعام ٢٠٠١ التي تنظّمها مؤسسة عبد المحسن القطّان وفازت بجائزة مماثلة، وفي مسابقة مماثلة عام ٢٠٠٣، عن روايتها **كلُّنا بعيد بذات المقدار عن الحب** (دار الآداب، ٢٠٠٤)

في فلسطين، كثيرًا ما أجدها قد توقّفتْ عن الحركة تمامًا فجأةً تَدْخل في حالة من الغيبوبة لا تعود معها قادرةً البتةَ على حساب الوقت. في آخر مرة كنتُ هناك في زيارة، ضبطتُها كعادتي وفق التوقيت المحلّي لحظةَ مسّتْ عجلاتُ الطائرة أرضَ مطار اللد. كانت الساعة عندها الثانيةَ إلاّ عشرَ دقائق بعد الظهر. اتّجهتُ نحو نقطة فحص الجوازات، وكان عددُ الواقفين في الطوابير قليلاً على غير العادة، في حين راح طابوري يتقدّم بشيء من الانسياب. وصلتُ وأعطيتُ جواز سفري إلى الشرطية، فتأخّرتْ في فحصه، ثم تأخّرتْ أكثر. فجأةً ظهر ثلاثةُ أشخاص، موزّعين بين أجهزةِ أمنٍ وشرطةٍ ومخابرات، واصطحبوني معهم خارج الطابور، لتبدأ بذلك سلسلةٌ طويلةٌ من التحقيق والتفتيش وقد جرى كلُّ شيء كما هو معتاد في مثل هذه الحالات: تحقيقٌ كاملٌ عن حياتي، وتفتيشٌ شاملٌ لأغراضي. بعدها تم اصطحابي إلى غرفة جانبية لإجراء تفتيشٍ لجسمي. وبينما أَخذتْ سيدةٌ حذائي وحزامي للفحص بواسطة جهاز الأشعّة، بقيتْ أخرى مع ساعتي، حيث حملتْها بين يديْها وشرعتْ تتأمّلها بتفانٍ وإخلاص. بعد لحظات نظرتْ إلى ساعتها، ثم عادت تنظر إلى ساعتي، ثم مرةً أخرى إلى ساعتها، فإلى ساعتي. عندما عادت السيدةُ الأولى بصحبة بقية أغراضي، أسرعت السيدةُ الثانية نحوها لتُخبَرها بأنّ هنالك شيئًا غريبًا في ساعتي: إنّها لا تتحرّك! لقد مرّ، حسب ساعتها، خمسُ دقائق، بينما ساعتي لم تتقدّم ولو دقيقةً واحدةً. نادت السيدتان مسؤولَ الأمن، فيما أخذتْ دقّاتُ قلبي المضطربة تَقْرع صدري بشدة.

لا أدري كم من الوقت مضى قبل أن تُزال جميعُ الشُّبهات عن ساعتي، وعنّي، وتمّ إطلاقُ سراحنا. لكنني حين وصلتُ إلى البيت اكتشفتُ أنّها كانت التاسعةَ ليلاً، بينما كانت ساعتي ما تزال تشير إلى أنّها الثانية إلا عشرَ دقائق. لقد بدا أنّها كانت تحاول أن تواسيني عبر إيهامي بأنّ كلّ ذلك التفتيش والتأخير دام صفرًا من الدقائق. كأنّ شيئًا لم يكن أو ربما هي فقط تَرْفض حسابَ الوقت المسلوب من حياتي لصالحِ ما قد يَبْعث اليأسَ في نفسي: نوعٌ من تعليق الوقت كوسيلةٍ للاحتيال على وقت الألم.

وأمام هذا التقاعس عن حساب الوقت في فلسطين خارجها، لم تكفّ ساعتي ولو مرةً واحدةً عن التحرُّك. أجدها لا تتأخّر عن حساب أيّ ثانيةٍ من الوقت الآخر، بل كثيرًا ما تحسبه أسرعَ من اللازم، فتبدو وهي تجري مستعجلةً كأنّها تَنْفضه عنها لحظةً تلو الأخرى ـ ذلك الوقتَ الآخر ـ كي تكون أكثرَ مقربةً من وقت فلسطين.

هكذا، سواءٌ أكان ما يُبْعد ساعتي الصغيرةَ عن فلسطين سبع ساعات أمْ صفرًا من الساعات، فالأمرُ سيّان بالنسبة إليها فهي، لأجل سلواني، تقودني برفقتها إلى خارج الوقت أينما حللتُ

لندن